مـــجـــلـــة دراســـات بيت الـــمـــقـــدس، 2020، 20(3): 411–432
DOI: 10.31456/beytulmakdis.810271

شخصيات غائبة حاضرة في تحرير بيت المقدس

أنس بوسلام*

ملخص: نتناول في المقال أبرز الشخصيات التاريخية التي ساهمت –بشكل غير مباشر– في تحرير بيت المقدس، وأولها مودود بن ألتونتكين باعتباره مثل رد الفعل الأول والمفاصلة مع العدو الصليبي، وثانيها عماد الدين زنكي (1127– 1146م) والذي شرع في توحيد الجبهة الإسلامية الداخلية وانتزع إمارة الرها سنة 1144م وبالتالي استرجاع المسلمين لعنصر الثقة، وثالثها الملك العادل نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي (1146– 1174م) والذي استكمل توحيد الشام وضم مصر ووحد المشرق العربي تحت خلافة واحدة هي الخلافة العباسية. ونختتم المقال بما سميناه "شخصيات أخرى مساندة"، وهي نجم الدين أيوب والد صلاح الدين الأيوبي، ومعين الدين أنر أتابك دمشق، وأسد الدين شيركوه عم صلاح الدين الأيوبي، وأعظم قادة نور الدين زنكي.

الكلمات المفتاحية: مودود بن ألتونتكين، عماد الدين زنكي، نور الدين محمود زنكي، نجم الدين أيوب، معين الدين أنر، أسد الدين شيركوه.

Absent Personalities Present in the Liberation of Bayt al-Maqdis

ABSTRACT: *This paper deals with the most prominent historical figures who contributed -indirectly- to the liberation of Jerusalem, the first of which was Mawdud ibn Altuntekin, who represented the first reaction against the crusaders; the second of which was Imad al-Din Zengi (1127-1146 CE), who proceeded to unify and gain the trust of the internal Islamic front and seized the County of Edessa in the year 1144 CE; and the third is the just king Nur al-Din Mahmoud Zengi (1146-1174 CE), who completed the unification of the Bilad al-Sham, annexed Egypt and unified the Arab East under one caliphate, the Abbasid Caliphate. The paper concludes with other "supporting personalities"; namely Najm al-Din Ayyub, the father of Salah al-Din al-Ayyubi, Mu'in al-Din Unar, the al-Atabeki ruler of Damascus, and Asad al-Din Shirkuh, the uncle of Salah al-Din who also contributed to the liberation of Bayt al-Maqdis.*

KEYWORDS: *Mawdud ibn Altuntekin, Imad al-Din Zengi, Nur al-Din Mahmud Zengi, Najm al-Din Ayyub, Muin al-Din Unar, Asad al-Din Shirkuh.*

* باحث دكتوراة، تخصص التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء، المغرب، anassbou352@gmail.com

مقدّمة

نظرا لما يكتسيه بيت المقدس من رمزية خاصة في نفوس العرب والمسلمين وغيرهم، فقد حظي باهتمام عدد من الدارسين والباحثين الذين حاولوا تناول مختلف الجوانب المرتبطة به سواء التاريخية أو الحضارية أو الدينية أو السياسية. وهذا البحث يتمحور حول الشخصيات السياسية التي ساهمت في تحرير بيت المقدس بشكل غير مباشر؛ أي من خلال تمهيد الأرضية والظروف والوسائل لصلاح الدين الأيوبي لإنجاز ما أنجز، وإن لم تحضر هذه الشخصيات وقعة حطين الشهيرة أو عملية تحرير بيت المقدس. ومن أبرز هؤلاء مودود بن ألتونتكين وعماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود وغيرهم، وهي شخصيات غابت بأجسادها عن تحرير بيت المقدس، لكنها كانت حاضرة، وبقوة، بدورها التاريخي والسياسي وإسهامها الكبير في تحقيق التراكم اللازم وتمهيد الظروف والأسباب ليوم كان معلوما. تتمحور إشكالية البحث حول التساؤل المركزي التالي: إلى أي حد كان تحرير بيت المقدس حدثا تاريخيا جاء نتيجة مخاض وتراكم ساهمت فيه مجموعة من الشخصيات والأطراف؟ بمعنى أن هناك شخصيات سابقة لصلاح الدين الأيوبي شاركت معه في تحقيق هذا الإنجاز الكبير.

حالة المشرق الإسلامي قبيل الحروب الصليبية

تتضح أهم ملامح هذه الحالة من خلال مكانة الشرق الإسلامي المهمة قبل الحروب الصليبية باعتبارها حلقة وصل تجارية بين آسيا وأوربا. حيث لعب دور الوساطة بين هذين المجالين (ميناء عكا–صور–اللاذقية...). إضافة إلى وضعية الانقسام السياسي التي عاشها المشرق بين الخلافتين العباسية في بغداد والفاطمية في القاهرة، واشتداد الخصومة بينهما، فغدت بلاد الشام مسرحا للصدام بين الجانبين، مما أدى إلى تفككها، فاستفاد الأتراك من ذلك لتأسيس مجموعة من الإمارات الصغيرة.

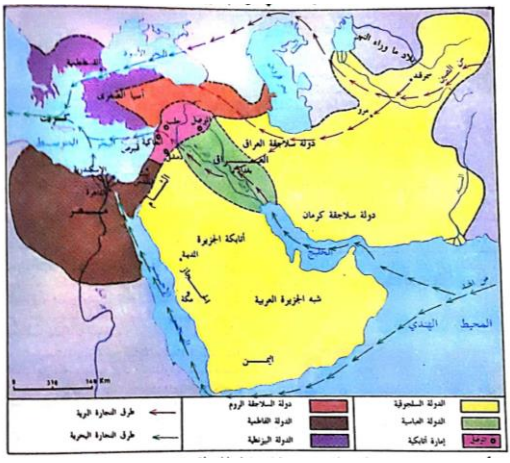

خريطة 1: حالة المشرق الإسلامي قبيل الحروب الصليبية.[1]

الإمارات الصليبية بالشام

بدأت الحملات الصليبية بحملة عشوائية سنة 488هـ/1095م، وتمكنت الحملة الصليبية المنظمة الأولى من احتلال بلاد الشام والتوغل شمال بلاد الرافدين وفلسطين بعد تجنيد الفرسان الفيوداليين لأعداد كبيرة

من الفلاحين الفقراء. و لم تتمكن هذه الجموع المسلحة من بلوغ مدينة القدس إلا سنة 492هـ/1099م بحكم المقاومة القوية التي وجدتها في طريقها، وتم خلال هذه الحملة تقتيل وإبادة عدد كبير من المسلمين.

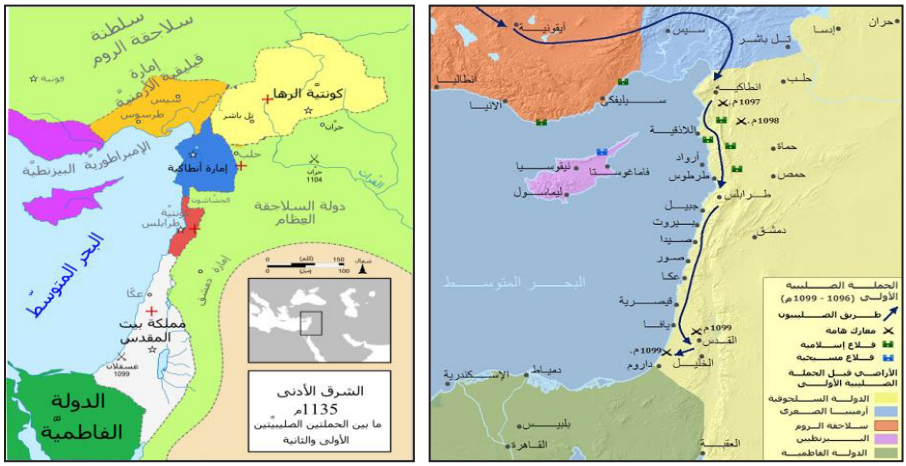

خريطة 2: اتجاه سير الحملة الصليبية الأولى.[2] خريطة 3: الشرق الإسلامي سنة 1135م ما بين الحملتين الصليبيتين الأولى والثانية.[3]

استطاع الصليبيون –بعد حملتهم الصليبية الأولى– أن يستولوا على جزء كبير من بلاد الشام والجزيرة وأنشأوا فيها إماراتهم الصليبية الأربع: الرها، وإنطاكية، وطرابلس، وبيت المقدس.[4] وقد بدأت المقاومة الاسلامية للصليبيين على يد عدد من الأمراء المسلمين.

أولا: مودود بن ألتونتكين – رد الفعل الأول والمفاصلة مع العدو الصليبي

بدأ مودود بترتيب بيته الداخلي في الموصل، وإقرار الأوضاع بعد الفتن التي مرت بها الإمارة في السنوات السابقة، وسار في إمارته بالعدل والرحمة، فأحبه الناس حبا شديدا، ودانوا له جميعا بالطاعة، خصوصا بعدما رفع راية الجهاد وسعى من أجل ذلك في تكوين حلف إسلامي.

تكوين حلف إسلامي

أعلن مودود الجهاد في سبيل الله، فعمل على توحيد الجهود، وتجميع الشتات، ومن ثَمّ بدأ مودود في مراسلة من حوله من الأمراء لتجميع جيوشهم تحت راية واحدة، ولهدف واحد وهو طرد الصليبيين من بلاد الإسلام. لكن استجابة الأمراء الآخرين كانت محدودة، ومن استجاب منهم لم يكن سلوكه يدل على فهمه لقضية الجهاد في سبيل الله، بل كانت المسألة عندهم واحدة من اثنتين: إما رغبة في نفع أو غنيمة، وإما رهبة من سلطة مودود بن ألتونتكين أو سلطانه الأكبر السلطان محمد السلجوقي، ومع ذلك فقد استطاع مودود أن يكوِّن حلفا من الأمراء: إسلاميا منظما لأول مرة في حروب المسلمين ضد الصليبيين، كان هو على رأسه، ويساعده فيه إيلغازي بن أرتق أمير ماردين وحصن كيفا، وهو أخو

سقمان بن أرتق الذي مات وهو في طريقه لنجدة طرابلس. وكان في الحلف، أيضا، سقمان القطبي وهو أمير خلاط وتبريز، كما تراسل معهم ظهير الدين طغتكين أمير دمشق، الذي كان معروفا بأن لديه بعض الميول الجهادية ضد الصليبيين.[5]

كانت وجهة هذه الحملة العسكرية واضحة إذ قررت التوجه صوب الرها، والغرض تحرير هذه الإمارة الإسلامية من الاحتلال الصليبي، وتحركت الجيوش الإسلامية من الموصل في شوال سنة 503هـ/ أبريل 1110م، وفي غضون أيام قليلة وصلت الحملة إلى حصون مدينة الرها، وهي تقع شرق نهر الفرات، وهي من أحصن القلاع في ذلك الوقت، فضرب مودود الحصار حول المدينة.

حصار مدينة الرها

شعر بلدوين دي بورج أمير الرها بالخطر الشديد، ومن ثَمّ أرسل رسالة استغاثة عاجلة إلى بلدوين الأول ملك بيت المقدس، وكان الذي يحمل الرسالة هو جوسلين دي كورتناي شخصيا أمير تل باشر، دلالة على اهتمام بلدوين دي بورج بالأمر، ووصلت الرسالة إلى الملك بلدوين الأول وهو في بيروت. وظل الأمير مودود محاصِرا لمدينة الرها مدة شهرين كاملين محاول بكل طريقة أن ينفذ من خلال استحكاماتها العسكرية لكنه لم يفلح لشدة حصانة المدينة، وفي هذه الأثناء كان بلدوين الأول يجمع الجيوش للدفاع عن إمارة الرها، وبالفعل جاء بلدوين الأول بنفسه على رأس فرقة من جيشه، وجاء معه برترام أمير طرابلس، بينما رفض تانكرد أن يأتي للخصومة التي كانت بينه وبين بلدوين دي بورج أمير الرها. فرأى مودود أن جيوشه ستحصر بين جيوش الصليبيين، حيث ستخرج له جيوش بلدوين دي بورج، ويغلق عليه بلدوين الأول وبرترام طريق العودة، ومن هنا فضل مودود أن ينسحب بجيشه إلى حرّان جنوب شرق الرها تمهيدا للانسحاب أكثر وأكثر لاستدراج الجيش الصليبي، كما حدث قبل ذلك بست سنوات في موقعة البليخ، وهناك في حران وافته جيوش طغتكين أمير دمشق لتزداد بذلك القوة الإسلامية.[6] نظر بلدوين الأول إلى هذه الترتيبات العسكرية ففهمها، وأدرك صعوبة التوغل إلى حران بجيوشهم القليلة نسبيا، فأرسل رسالة عاجلة إلى تانكرد يستحثه على القدوم بجيشه لمقابلة المسلمين في موقعة فاصلة، فاضطر تانكرد إلى الموافقة، وجاء على رأس ألف وخمسمائة فارس، وعند وصوله عقد بلدوين الأول مجلس مصالحة صفّى فيه الخلافات القديمة بين بلدوين دي بورج وتانكرد،[7] إضافة إلى هذه التحركات من بلدوين الأول تفاوض الأخير، أيضا، مع كوغ باسيل الأمير الأرمني لمدينة كيسوم، والذي انضم إليه بالفعل بفرقة من جيشه زادت قدرات الجيش الصليبي، ولكن ذلك لم يكن خافيا على استخبارات مودود، فقرر أن يُمعِن في الانسحاب حتى يستدرج الصليبيين بعيدا تماما عن حصون الرها أو تل باشر ليفتقروا إلى ملجأ في حال هزيمتهم.[8] غير أن بلدوين الأول لم يندفع وراء الجيش الإسلامي، خاصة أنه

كان الحاكم السابق لإمارة الرها، ومن ثَمّ فإنه يدرك جغرافيا المكان، وخطورة التوغل جنوبا. في هذا الوقت ترامت أخبار للملك بلدوين الأول باحتمال هجوم فاطمي على مملكة بيت المقدس، وكذلك وردت أخبار عن تحركات لرضوان ملك حلب صوب بعض القلاع المملوكة لتانكرد حول أنطاكية،[9] وقد جعلت هذه الأخبار المزعجة الصليبيين في قلق على إماراتهم، وبذلك قرروا الرجوع دون قتال، ومع ذلك فقد رأى بلدوين الأول أن ترك هذه المساحات الكبيرة من القرى والضياع والمزارع –وكلها داخلة في حدود إمارة الرها– سيمثل خطورة كبيرة على سكانها الصليبيين والأرمن، ومن ثَمّ أصدر قراره بترحيل كل السكان من هذه المناطق الواقعة شرق الفرات إلى غربه، وذلك لتفادي هجوم المسلمين عليهم، وعليه فلن يبقى شرق الفرات إلا المدينتان الكبيرتان: الرها وسروج.[10] وبالفعل بدأ الترحيل السريع للسكان تمهيدا لعودة الجيوش الصليبية إلى أماكنها، وأدرك ذلك مودود فتقدم بجيوشه شمالا، والصليبيون يتراجعون في سرعة، ومع ذلك استطاع مودود أن يلحق بمؤخرة الجيش الصليبية، وبكثير من السكان الذين فشلوا في عملية الترحيل المفاجئة، وهذا أدى إلى انتصار إسلامي سريع على مؤخرة الصليبيين، مع امتلاك عدد كبير من الأسرى والغنائم والسلاح.

لم تكن الموقعة فاصلة بالطبع، لأن معظم الجيوش الصليبية كانت قد عبرت نهر الفرات إلى الغرب، أو دخلت حصون الرها وسروج، ومع ذلك فإن الموقعة تركت عدة آثار إيجابية لا يمكن إغفالها، وهي كالآتي:

- وضعت الموقعة المسلمين على الطريق الصحيح، حيث كانت الراية المرفوعة هي راية الجهاد في سبيل الله.
- كانت هذه هي الموقعة الأولى التي تجمع فيها جيوش عدة إمارات في جيش واحد، وخاصة أن طغتكين شارك فيها بجيش دمشقي مع الجيوش العراقية والفارسية.
- أدرك النصارى في هذه الموقعة أن العزيمة الإسلامية لم تمت، وأن الأمة الإسلامية لم تنس قضية الإمارات المحتلة.
- فقدان الصليبيين عددا من الأسرى والغنائم عززت قوة المسلمين.
- استطاع المسلمون السيطرة على بعض الحصون والقلاع والأراضي شرق الفرات، ولم يبق في شرق الفرات سوى مدينتي الرها وسروج، وهما –وإن كانتا في غاية التحصين– إلا أنهما صارتا معزولتين فقيرتين بعد سيطرة المسلمين على المزارع حولهما، ولا شك أن هذا سيضعف من إمارة الرها، وهكذا تركت هذه الحملة انطباعا إيجابيا مع أنها لم تكن فاصلة، وعاد مودود إلى الموصل، بينما رجع كل أمير إلى إمارته.

موقعة الصنبرة وما بعدها

في 13 محرم 507هـ/ 20 يونيو 1113م وقع بلدوين الأول في الكمين الذي نصبه مودود له عند جسر الصنبرة، بل إنه في رعونة بالغة لم يترك حامية صليبية تحمي ظهره، وكأنه نسي كل القواعد العسكرية

المعروفة. فدارت موقعة شرسة عند جسر الصنبرة،[11] وهي ما عرفت في التاريخ بموقعة الصنبرة، وكان للمفاجأة عامل كبير في تحويل دفة المعركة لصالح المسلمين، وما هي إلا ساعات حتى سُحِق الجيش الصليبي، وقتل ما يزيد على ألفي فارس، وهرب بلدوين الأول بمشقة بالغة بعد أن دمرت فرقة من أهم فرق جيشه، وغنم المسلمون غنائم هائلة في هذه المعركة من الخيول والسلاح والممتلكات، وكان يوما رد فيه مودود الاعتبار من هزيمة السنة الماضية عند حصون الرها، ثم ما لبثت الأخبار أن أتت بقرب وصول جيش روجر وبونز، مع احتمال وصول إمدادات جديدة من بيت المقدس والمدن الساحلية، مما جعل مودود يفكر في سحب جيوشه بسرعة قبل أن تُحصر في طبرية. خرج مودود فعلا من منطقة المعركة ليتجنب الوقوع في كمائن الصليبيين، ثم ما لبثت الجيوش الصليبية أن تجمعت من جديد، لكنها لاحظت قوة الجيش الإسلامي وارتفاع معنوياته فقرّرت عدم الدخول في مواجهة فاصلة، ولذلك احتمت بأحد المرتفعات غربي بحيرة طبرية، وتوجه إليهم المسلمون وحاصروهم، لكن الصليبيين رفضوا النزول من أماكنهم، واكتفوا برمي المسلمين بالسهام والرماح من بُعد.[12] في هذه الأثناء كانت الجيوش الإسلامية -إضافة إلى حصار الصليبيين في أماكنهم- تجوب المنطقة لتدمير الحصون الصليبية فيما بين عكا والقدس.[13] ثم إنه في هذه الأثناء، أيضا، تحرك جيش عبيديّ من عسقلان صوب بيت المقدس، وكان جيشا صغيرا لم يفكر إلا في إحداث بعض الهجمات الاستنزافية في المنطقة، ولم تكن له القدرة على قتال الحامية الصليبية القوية في بيت المقدس، ومع ذلك، فقد أرعب هذا الجيش بلدوين الأول الذي خشي من تواصل هذا الجيش مع الجيش السلجوقي، ومن ثَمّ يتأزم الموقف أكثر، إلا أنه -للأسف- لم تكن نية التعاون مع المسلمين السُّنّة واردة مطلقا عند الجيش الفاطمي، لذلك ما لبث أن عاد إلى عسقلان محمّلا ببعض الغنائم دون التواصل مطلقا مع جيش مودود.[14] استمر حصار المسلمين لجيش الصليبيين مدة ستة وعشرين يوما كاملة دون أن يجرُؤَ الصليبيون على الخروج لمواجهة شاملة، إلا أنه في أغسطس 1113م وصل أسطول أوربي يحمل ستة عشر ألف حاج صليبي مسلح إلى ميناء عكا القريب. ولا شك أن هذا العدد الضخم قَلب الموازين لصالح الصليبيين، فشعر مودود بالخطر نتيجة تجمع هذه الأعداد الكبيرة من الصليبيين، ولذلك فكّر في الانسحاب من طريقه مكتفيا بالنصر الذي حققه، ومحافظا على جيشه الذي لم يفقد في هذه المعارك إلا القليل جدا من رجاله، وبالفعل تحركت الجيوش الإسلامية صوب الشمال في اتجاه دمشق، ولم تفكر الجيوش الصليبية في متابعتها لإرهاقها الشديد، وهزيمتها النفسية نتيجة الخسائر الكبيرة، فضلا عن خوفها من هجوم فاطمي أكبر على مدينة بيت المقدس. وهكذا رضي الطرفان بهذه النتيجة، واتجهت الجيوش الإسلامية إلى دمشق، حيث دخلتها في ربيع الآخر سنة 507هـ/سبتمبر 1113م.

تقييم لحركة مودود

كانت حركة مودود حركة إسلامية عابرة للانتماءات، ويدلل على هذا أن الحلف الذي كونه مودود ضم مسلمين عربا وفرسا وأتراكا وأكرادا؛ فمودود كان سلجوقيا تركيا وأميرا للموصل والتي تضم عربا وكردا وغيرهم، وكذلك إيلغازي بن أرتق أمير ماردين وحصن كيفا وهي مناطق تركية يعيش بها أتراك وعرب وغيرهم، وسقمان القطبي وهو أمير خلاط وتبريز ببلاد فارس، وظهير الدين طغتكين أمير دمشق حاضرة بلاد الشام.

حفِظ مودود ماء وجه المقاومة والجبهة الإسلامية وحقق أول نصر مهم على الصليبيين، ذلك إن إمارة مودود –على قصر مدتها تعد– نقطة تحول في تاريخ الصراع الإسلامي–الصليبي خلال تلك المرحلة المبكرة، فقد صارت فكرة الجهاد حقيقة واقعة، وعلى الرغم من الدور الرائد الذي قام به مودود، إلا أننا نجد البعض يرى أن عماد الدين زنكي هو الذي وضع أساس حركة الجهاد ضد الصليبيين، وفي هذا إجحاف بدور تلك القيادة السلجوقية وواقع الأمر: أن المؤرخين الذين أرخوا لتلك المرحلة من تاريخ الصراع الإسلامي–الصليبي انبهروا بحجم الإنجاز الكبير الذي قام به عماد الدين من حيث إسقاط أول إمارة صليبية أقيمت في المنطقة، فتصوروا أن المراحل السابقة عليه ليست ذات قيمة كبيرة على الرغم من أنها كانت الممهدة الحقيقية لإنجاز عام 539هـ/1144م. ولا نغفل، أيضا، أن الدعاية السياسية التي قام بها ابن الأثير من خلال كتابه "التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية"، قد جعلت المؤرخين يتأثرون بها، ويكفي مودودا فخرا أنه نجح في ضرب الوجود الصليبي في الجليل، وهي منطقة لم تصل إليها هجمات المسلمين قرابة عقدين من الزمان، ويكفيه أنه ألحق الهزيمة بمؤسس مملكة بيت المقدس الصليبي.

ونستطيع أن نصل إلى رؤية محددة مؤداها أن كل قائد من قادة الجهاد الإسلامي كان يكمّل الآخر، وما قام به مودود أفاد – فيما بعد – القائد العظيم صلاح الدين الأيوبي، ولذا فبالإمكان القول، اليوم الصنبرة وغدا حطين، وهذا ما أثبته السياق العام لتاريخ تلك المنطقة في القرن 6هـ/12م، وعلى أية حال عند مقارنة جهد مودود بسابقيه في صورة كربوغا، وجكرمش، وجاولي سقاوة سيتضح لنا أنها أدوار متدرجة ومتصاعدة، فكربوغا انحصر أمره في نجدة أنطاكية، وجكرمش زاد الأمر من خلال تحالفه مع سقمان بن أرتق على نحو أدى إلى الانتصار في معركة حران سنة 498هـ/1104م. أما مودود، فإن دوره أكثر تعاظما على نحو أدى إلى هزيمة الصليبيين في معركة الصنبرة، وهو أمر يثبت لنا أنه خلال نحو تسعة أعوام فقط تم إلحاق هزيمتين كبيرتين بالصليبيين، غير أن العقبة القائمة تمثلت في عدم الإفادة من كل من الانتصارين في استرداد مناطق مهمة أو استراتيجية احتلها الأعداء.

تعود محدودية حركة مودود بن ألتونتكين إلى التخاذل والتفرقة والمصالح الشخصية والخيانة، فقد دخل مودود مدينة دمشق في 507هـ/ سبتمبر 1113م، عازما أن يبقى يبقى فيها خلال فصل الشتاء ليستغل هذه الفترة في تجميع جيوش جديدة والاستعداد لمواجهة جديدة مع الصليبيين، فدخل مودود إلى مسجد دمشق الكبير لأداء الجمعة الأخيرة في شهر ربيع الآخر سنة 507هـ/ أكتوبر 1113م، وفور انتهاء الصلاة، وبينما هو يتجول في صحن المسجد واضعا يده في يد طغتكين، قفز عليه رجل من الباطنية، وطعنه بخنجر، فلقي مصرعه على الفور، ليختم بذلك حياة حافلة بالجهاد والبذل والعطاء، وبادر طغتكين فورا بقتل الباطني قصاصا، بل وأحرق جثته.[15] وشامتا كتب ملك الفرنج في بيت المقدس كتابا إلى طغتكين جاء فيه: "إن أمة قتلت عميدها، يوم عيدها، في بيت معبودها، لحقيق على الله أن يبيدها"، لكن فات عن هذا الملك أن القاتل ينتمي لمنظمة من المرتزقة (طائفة الحشاشين) اعتادت على أعمال القتل غيلة، ولا علاقة لها بتوجه الأمة الإسلامية المؤمن بالجهاد ومناجزة المحتلين، ولا أدل على هذا من حالة الحزن والغضب التي عرفتها دمشق بعد استشهاد مودود.

أثبتت حركة مودود حاجة الجبهة والبيت الإسلامي الداخلي لمزيد من الترتيب والوحدة، فبعُد مودود عن بلاده وانقطاع الإمداد والتموين عنه واشتداد البرد، اضطره إلى وقف عملياته في المنطقة والعودة إلى دمشق في 21 ربيع الأول على أمل الرجوع ثانية لقتال الصليبيين عند حلول الربيع، وبعد أن يتلقى جواب السلطان على رسالته، وقد كشفت حملات مودود –عموما– عن الضعف الذي كانت عليه القوى الإسلامية في بلاد الشام والجزيرة وعدم إخلاص بعضها لقضية الجهاد ضد الغزاة الصليبيين.

أسست حركة مودود في المشرق الإسلامي لشرعية سياسية جديدة هي شرعية الأمير المحارب أو المجاهد، وهي تلك التي ترتبط بالجهاد والنهوض لمناجزة العدو الصليبي الذي اقتطع جزءا عزيزا من بلاد الإسلام، وهكذا أعلن مودود أن جهاده سيكون في سبيل الله، وهذا جعل جنده في حالة معنوية عالية، إذ أصبح الجهاد قضية شخصية لكل واحد، فهم جميعا يعملون لله، أما عندما كان الجهاد في عهود سابقة من أجل أمير معين أو طاعة لأمر قادم من هنا أو هناك، فإن الجنود حينها كانوا يقاتلون بفتور ويدافعون بغير اكتراث ولا يسعدون بنصر ولا يحزنون لهزيمة، فمودود جعل القضية واضحة تماما في عين المسلمين والجند، وهو ما ارتد بشكل إيجابي على شرعية إمارته وشعبيته وحب الناس له، وهي الشرعية نفسها التي أفاد منها عماد الدين زنكي.

ثالثا: عماد الدين زنكي (1127–1146م)

هو عماد الدين زنكي بن آق سنقر الحاجب بن عبد الله، أبو المظفر الأتابك. كان أبوه مملوك السلطان ملكشاه السلجوقي. تولى الأمير كربوقا أمير الموصل تربية عماد الدين وتعهده بالعناية والرعاية وتعليمه

فنون الفروسية والقيادة والقتال، وترقى في سلك الجندية حتى صار مقدم عساكر مدينة واسط، ثم ظهرت كفاءته القتالية سنة 517هـ في قتاله مع الخليفة العباسي المسترشد بالله ضد دبيس بن صدقة مما جعل السلطان السلجوقي محمود يرقيه ليصبح قائد شحنة بغداد سنة 521هـ ويعطيه لقب الأتابك أي مربي الأمير، ذلك لأنه توسم فيه الخير والصلاح والنجابة، فعهد إليه بتربية ولديه ألب أرسلان وفروخ شاه.[16]

مشاركته مع مودود في عدد من معاركه

حينما تولى جاولي سقاوة أمر الموصل توطدت علاقة عماد الدين به حتى خرج ذلك الوالي على السلطان، فانفصل عماد الدين عنه، وانضم إلى الوالي الجديد مودود بن ألتونتكين الذي عينه السلطان على الموصل، وكان ذلك مدعاة إلى إكبار السلطان له، وثقته فيه، وزيادة حظوته ومكانته عنده، وقد اشترك عماد الدين مع مودود في معاركه الكثيرة التي خاضها ضد الصليبيين في الشام والجزيرة، وقد لفت إليه الأنظار بشجاعته الفائقة ومهارته القتالية العالية، ومن أمثلة ذلك معركة الصنبرة والتي أبلى فيها بلاء حسنا حتى وصف ذلك ابن الأثير بقوله: "وقد وصل في المهارة العسكرية إلى الغاية".[17]

تعيينه على ولاية الموصل وأعمالها

بعد أن أصبح عماد الدين زنكي قائدا، حدث تغير كبير في مجرى الأحداث بمنطقة الشام، حيث توفى أمير الموصل عز الدين مسعود، وحاول بعض المنتفعين تولية ولده الصغير مكانه، ولكن قاضي الموصل بهاء الدين الشهرزوري ذهب إلى السلطان محمود وطلب منه تعيين أمير قوي وكفء على الموصل التي على حدود الشام حيث الوجود الصليبي الكثيف في الساحل، فقرر السلطان أن يسند ولاية الموصل وأعمالها إلى عماد الدين زنكي وكان ذلك سنة 521هـ.

احتضانه للأسرة الأيوبية

بعد أن تعرض عماد الدين زنكي لهزيمة قاسية من الخليفة العباسي المسترشد سنة 525هـ قرب مدينة سامراء، لجأ إلى مدينة تكريت حيث آواه حاكمها نجم الدين أيوب، وأعانه حتى أعاد تنظيم قواته، وكانت تلك لحظة البداية لتوطيد علاقات المودة والثقة المطلقة بين الفريقين الزنكي والأيوبي، وبعد ذلك اضطر نجم الدين أيوب وكامل أسرته إلى الخضوع لأمر الخليفة بالانسحاب من تكريت، بعدما عرف بإيوائه لزنكي، فقصدوا الموصل حيث التجأوا إلى زنكي، الذي استضافهم وجعلهم موضع رعايته، لتبدأ مرحلة جديدة في حياة هذه الأسرة التي ستُقيم دولتها على أنقاض دولة الزنكيين بعد أقل من نصف قرن على هذا التاريخ.

بداية توحيد الجبهة الإسلامية الداخلية

عمل عماد الدين على تأسيس دويلة وراثية وتوسيعها عن طريق ضم المدن والإمارات المحلية في الجزيرة الفراتية وبلاد الشام وتوحيدها مع إمارة الموصل، ثم تكوين جبهة إسلامية متماسكة تستطيع مواجهة الصليبيين وتطردهم من بلاد الإسلام، غير أن الساحة العراقية كانت تستنزفه بسبب الصراع الداخلي بين سلاطين السلاجقة والخلافة العباسية التي كانت تطمح على يد الخليفة المسترشد ومن تلاه إلى الاستقلال بحكم العراق وطرد السلاجقة منه، الأمر الذي كان يضطر زنكي إلى المراوحة في علاقاته بين الجانبين السلجوقي والعباسي. قرّر عماد الدين زنكي الالتفات إلى الجبهة الشامية والجزيرة الفراتية التي رأى فيها خطرين عظيمين، الأول مجموعة من الإمارات والمدن الضعيفة التي يحكمها عدد من الأمراء المسلمين المشرذمين، والثاني وجود الإمارات الصليبية القوية والمتمرّسة وفي القلب منها الرها وأنطاكية وطرابلس التي كانت بمنزلة الكمّاشة على هذه المدن.

وبسبب ذلك حسم عماد الدين زنكي أمره بتوحيد وضم هذه المدن، وبالفعل بدأ بضم نصيبين التابعة لإمارة ماردين الأرتقية، واختارها أولا كونها أقرب المواقع إلى الجهات التابعة لحكمه، ثم ألحق بها مدينة البوازيج قرب تكريت والواقعة على طريق الموصل سنة 521هـ، وضمّ جزيرة ابن عمر وتقع في الشمال من الموصل لأهميتها الاقتصادية والسياسية الكبيرة، وكانت عينه على الدوام صوب مدينة حلب، تلك المدينة العريقة والكبيرة والتي تستطيع سكانيا وجغرافيا وعسكريا أن تُجابه النفوذ الصليبي وتقضي عليه في هذه المناطق الشمالية، وقد رأى عماد الدين استغلال الصليبيين لأوضاع المدينة السياسية وتنازع الأمراء الصغار للاستئثار بهذه المدينة حيث راحوا يهاجمونها مرة بعد مرة، وهنا استغل المنشور الذي أعطاه له السلطان بحكم الموصل والجزيرة وبلاد الشام، فأرسل حاجبه إلى المدينة وسكانها يأمرهم فيها بتسليم مفاتيحها إليه والدخول في طاعته، وفي أوائل سنة 522هـ/1128م غادر الموصل في اتجاهها واستطاع أن يضم في طريقه بُزاعة ومنبج وغيرها.

لم يكن ضم عماد الدين لمدينة حلب بالشيء السهل، فلقد ظل محاصرا لها عدة شهور قبل دخولها سنة 522هـ.[18] وقد كانت سيطرة عماد الدين زنكي على حلب في واقع الأمر عزلا لإمارة الرُّها الصليبية بين الغرب والجنوب حيث الدعم الصليبي في أوقات الحصار، وحين استقرت الأوضاع له بحلب، قرّر الاستيلاء على مدينة سنجار الواقعة في منتصف الطريق بين الموصل وحلب وذلك بدعم من أهلها وتمكن، أيضا، من ضم مدينة الخابور،وبعدها مدينة حماة في السنة التالية (523هـ).[19] وضمّ مدينة حرّان بمساعدة أهلها، وحصن الأثارب وكان بيد الصليبيين،[20] ومدينة سرجى ودارا،[21] ثم انشغل بالخلافات العنيفة بين الخليفة المسترشد والسلطان مسعود، بل تورط فيها، وبعدها ضم قلعة الصور

وقلاع الأكراد الحميدية والهكارية وكواشي،[22] وأيضا إربل في عام 526هـ، ثم الرقة ودقوقا وشهرزور والحديثة وعانة على نهر الفرات، وواصل سعيه حتى استقامت له ديار بكر وإقليم الجبال سنة 528هـ. وبذلك، أيضا، استقامت له معظم بلاد الشام عدا ما كان بيد الصليبيين ودمشق قلب الشام وحاضرته، وقد حاول ضمها سنة 529هـ، ولكنه فشل وبقيت خارج سلطته، وفي سنة 531هـ فتح قلعة بعرين الحصينة بعد كسره للفرنجة.

مناوشة إمبراطور بيزنطة وبث الفرقة بينه وبين الفرنجة

عندما تنامت قوة عماد الدين زنكي في حلب وثقلت وطأته على الصليبيين في الشام فكروا في الاستعانة بإمبراطور القسطنطينية عمانوئيل، ورغم الاختلاف المذهبي بينهم فهم كاثوليك وهو أرثوذكسي إلا أنهم في النهاية نصارى فوافق عمانوئيل على نجدتهم. أصبحت بلاد الشام في موقف حرج بالغ الخطورة فإمبراطور بيزنطة جاءها بجيوش جرارة سنة 532هـ واخترق آسيا الصغرى و لم يستطع أحد من سلاجقة الروم إيقافه ودخل إلى سوريا بعد أن استولى على مدينة بزاعة، وهي قريبة من حلب فغدر بأهلها بعد أن أعطاهم الأمان فقتلهم وسبى نساءهم، وهنا وقعت المنطقة بين مطرقة إمبراطور بيزنطة وسندان الصليبيين الفرنجة بالشام. بعد نظر وتمعن في هذه النازلة العامة قرر عماد الدين العمل في اتجاهين:

الاتجاه الأول: مناوشة إمبراطور بيزنطة بشن حرب عصابات على معسكره باستخدام المتطوعين في الشام من خلال هجمات الكر والفر وإرسال رسائل التهديد والوعيد لهذا الإمبراطور على الرغم من الفارق الضخم بين القوتين وذلك من أجل إرهاب البيزنطيين ومنعهم من التقدم.

الاتجاه الثاني: إيقاع الخلاف بين البيزنطيين والفرنجة، إذ استغل الخلاف المذهبي بين الأرثوذكس والكاثوليك للتفريق بينهما، فأرسل إلى إمبراطور بيزنطة يخوفه من نكث الفرنجة للعهود وأنهم يتربصون به فإن فارق مكانه الذي فيه قلعة شيزر بالقرب من حماة سيتخلفون عن نصرته، ثم أرسل إلى الصليبيين الفرنجة يخوفهم من إمبراطور بيزنطة ويقول لهم إن ملك بالشام حصنا واحدا ملك بلادكم جميعا.[23]

نجحت خطة زنكي ووقع الخلاف بين الطرفين وانسحب الإمبراطور من الشام وترك المجانيق وأسلحة كثيرة بحالتها غنمها جيش الشام، وحرروا أسرى المسلمين، وارتفعت مكانة عماد الدين بين المسلمين وعظمت هيبته في صدور الصليبيين.

انتزاع الرها واسترجاع الجبهة الإسلامية لعنصر الثقة

تقع إمارة الرها في منطقة الجزيرة الفراتية وهي المنطقة الواسعة الواقعة بين نهر الفرات ونهر دجلة، وعندما انطلقت شرارة الحملات الصليبية احتل الصليبيون الرها وأقاموا بها أول إمارة صليبية في منطقة الجزيرة السورية وذلك سنة 492هـ. كان أميرها صليبي يدعى جوسلين وقد فهم من تحركات زنكي أنه يخطط

لفتح الرها، فعمد إلى تقوية دفاعاتها والمبالغة في تحصينها وظل مقيما فيها لا يفارقها أبدا. وقد أخبرنا ابن الأثير مؤرخ الدولة الزنكية الأشهر في تاريخيه "الكامل" و"الباهر" عن استراتيجية عماد الدين زنكي، حيث أوهم الصليبيين في الرها بمحاربته أمراء الأراتقة في ديار بكر لضم بلادهم إلى دولته، فأمِن جوسلين إلى خطة عماد الدين وتحركاته البعيدة عنه، فغادر المدينة مطمئنا إلى الحرب الأهلية بين القادة المسلمين. يقول ابن الأثير عن بعض تفاصيل حصار عماد الدين زنكي لمدينة الرها الصليبية:

> وكان هو (أي زنكي) أول من حمل على الفرنج...، ونازل البلد، وقاتله ثمانية وعشرين يوما... وأخذ البلد عنوة وقهرا، وحصر قلعته فملكها أيضا، ونهب الناس الأموال وسبوا الذرية وقتلوا الرجال، فلما رأى أتابك (عماد الدين زنكي) البلد أعجبه، ورأى أن تخريب مثله لا يجوز في السياسة، فأمر فنُودي في العساكر برد من أخذوه من الرجال والنساء والأطفال إلى بيوتهم، وإعادة ما غنموه من أثاثهم وأمتعتهم، فردُّوا الجميع عن آخره لم يُفقد منهم أحد إلا الشاذ النادر الذي أُخذ.[24]

تقييم لشخصية ودور عماد الدين زنكي

مَثَلَّ عماد الدين شخصية القائد العسكري والسياسي المحنك، ففي وصفه قال ابن الأثير:

> كان شديد الهيبة في عسكره ورعيته عظيم السياسة لا يُقْدِر القوي على ظلم الضعيف وكانت البلاد قبل أن يملكها خرابا من الظلم وتنقل الولاة ومجاورة الفرنجة، فعمرها وامتلأت أهلا وسكانا...، وكان أشجع خلق الله.[25]

عُرِف عماد الدين بميله إلى البطش والقسوة، وليس أدل على هذا الجانب في شخصية الرجل مما فعله عند دخول بعلبك، فبعد أن أعطى الأمان لأهلها وفتحت المدينة أبوابها له، غدر بحاميتها وأمر بقتلهم جميعا، وهي من سقطات الرجل التي لا سبيل إلى إنكارها أو تبريرها. كما أن مساعيه لتحقيق الوحدة قامت بالأساس على القوة والوسائل العسكرية أكثر من أي شيء آخر، فقد استطاع عماد الدين بالوسائل العسكرية –أساسا– أن يُوحد مناطق شاسعة بين الموصل في شمال العراق، مرورا بالجزيرة الفراتية ومناطق جنوب الأناضول، وبين حلب في شمال بلاد الشام غربا، ويطرد الصليبيين من إمارة الرها الاستراتيجية، وهي سياسة قد تكون محل خلاف بين من يراها ضرورية لحساسية وخطورة اللحظة التاريخية وبين من يرى أن الوحدة لا تطلب إلا بالرفق والسياسة والعدل والرحمة وتأليف القلوب، وهو النهج الذي سار عليه ابنه نور الدين محمود.

ثالثا: الملك العادل نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي (1146 – 1174م)

هو أبو القاسم نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر (511–569هـ/1118–1174م). يلقب بالملك العادل، ومن ألقابه الأخرى ناصر أمير المؤمنين، تقي الملوك، ليث الإسلام، كما لقب بنور الدين الشهيد رغم وفاته بسبب المرض، وهو الإبن الثاني لعماد الدين زنكي.[26]

توليه إمارة حلب ونجدة الرها (1146م)

بعد مقتل عماد الدين زنكي تولى ابنه نور الدين محمود أمر مدينة حلب، فوجدها جوسلين –صاحب الرها السابق– فرصة لاسترجاع إمارته، فحاصر المدينة، غير أن نور الدين نجح في إنجادها وإجبار جوسلين على الرحيل عنها، ليثبت الأمير الجديد أنه لا يقل حنكة وتجربة عن أبيه.

التحالف مع دمشق بعد مصاهرة أتابكها

ترددت المراسلات بين نور الدين زنكي ومعين الدين أنر أتابك دمشق، وازداد تقارب الطرفين بزواج الأول بابنة الثاني عصمة الدين خاتون وذلك سنة 542هـ/1147م، ولم يكن هذا التقارب مرضيا للصليبيين الذين رأوا فيه امتدادا لنفوذ نور الدين إلى دمشق حيث يمكن أن يقف في وجههم، كما أبعد دمشق من تقاربها مع الفرنج، وفي الوقت ذاته قوّى شوكة المسلمين في التصدي وكسر الحملة الصليبية الثانية التي وجهت نحو دمشق.

مساهمته في كسر الحملة الصليبية الثانية سنة 1148م

يشير إلى العسلي أنه في سنة 1147م وصلت الحملة الصليبية الثانية على الشام بزعامة لويس السابع وكونراد الثالث، لكنها فشلت في تحقيق أهدافها وتعرضت لخسائر هائلة، وعجزت عن احتلال دمشق، ويرجع الفضل في ذلك لصبر المجاهدين واجتماع كلمة جيش المسلمين ووحدة صفهم، وكان للقوات التي جاءت مع سيف الدين غازي وأخيه نور الدين أكبر الأثر في فشل تلك الحملة.

الانتصار على إمارة أنطاكية سنة 1149م

استغل نور الدين النكبة التي حلّت بالصليبيين بسبب فشل الحملة الثانية وضياع هيبتهم، للهجوم على أنطاكية بعد أن ازداد نفوذه في الشام، فهاجم في سنة 544هـ/1149م الإقليم المحيط بقلعة حارم الواقعة على الضفة الشرقية لنهر العاصي، ثم حاصر قلعة إنب، فنهض ريموند دي بواتيه صاحب أنطاكية لنجدتها، والتقى الفريقان في 21 صفر 544هـ/ آخر يونيو 1149م، ونجح المسلمون في تحقيق النصر وأبادوا الصليبيين عن آخرهم، وكان من جملة القتلى صاحب أنطاكية نفسه.

توحيد الشام بعد ضم دمشق وشيزر وبعلبك وحران وحارم وبانياس وقلعة جعبر

كان الإفرنج قد استولوا على عسقلان سنة 548ه وكانت بيد الفاطميين، و لم يجد نور الدين سبيلا إلى إنجادها لحيلولة دمشق بينه وبينها وكان صاحبها يومئذ مجير الدين أبق والذي رضي دفع الجزية للصليبيين. فخشي نور الدين عليها من الإفرنج، فلاطف في البداية مجير الدين حتى توثقت المودة بينهما فصار يداخله في أهل دولته ويرميهم عنده بحجة أنهم كاتبوه فيوقع الآخر (مجير الدين) بهم حتى هدم أركان دولته و لم يبق من أمرائه إلا الخادم عطاء بن حفاظ وكان هو القائم بدولته فغص به نور الدين وحال بينه وبين دمشق فأغرى به صاحبه مجير الدين حتى نكبه وقتله. وخلت دمشق من الحامية فاتجه حينئذ نور الدين إليها مجاهرا بعداوة مجير الدين. واستنجد بالإفرنج مقابل أن يعطيهم الأموال ويسلم لهم بعلبك فجمعوا واحتشدوا. وأثناء ذلك عمد نور الدين إلى دمشق سنة 549هـ وكاتب جماعة من أحداثها فلما وصل ثاروا بمجير الدين فلجأ إلى القلعة، وملك نور الدين المدينة وحاصره بالقلعة وبذل له مدينة حمص. فسار إليها مجير الدين وحاز نور الدين القلعة. ثم عوضه عن حمص ببالس فلم يرضها ولحق ببغداد وأقام بها إلى أن توفي.

ولما فرغ نور الدين من أمر دمشق بعث إليه الإفرنج الذين في تل باشر في شمالي حلب واستأمنوا إليه ومكنوه من حصنهم فتسلمه حسان المنبجي من كبراء أمراء نور الدين سنة 549ه، ثم سار سنة 551هـ إلى قلعة بهرام وهي تابعة لأمير إنطاكية، فحاصرها واجتمع الإفرنج لمدافعته ثم صالحوه على نصف أعمال حارم فقبل صلحهم ورحل. كما ضم نور الدين شيزر ورمم أسوارها وجدد عمارتها، وألحق بحكمه، أيضا، بعلبك سنة 552هـ، بعد أن استنزل صاحبها الضحاك البقاعي عنها، ودخل حرّان لكنه سلمها إلى زين الدين علي كجك نائب أخيه قطب الدين بالموصل وسار إلى الرقة فحاصرها، ولما افتتح نور الدين قلعة حارم أذن لعسكر الموصل وحصن كيفا بالانطلاق إلى بلادهم وعزم على منازلة بانياس وكانت بيد الإفرنج منذ سنة 543هـ، فحاصرها وضيق عليها في ذي الحجة من سنة 559هـ. وكان معه أخوه نصير الدين وأخذ الإفرنج في الجمع لصده فلم يستكملوا أمرهم حتى فتحها وشحن قلعتها بالجند والسلاح. وخافه الإفرنج فقاسموه في أعمال طبرية وضرب عليهم الجزية في الباقي ووصل الخبر بفتح حارم وبانياس إلى ملوكهم الذين ساروا إلى مصر فسبقهم بالفتح وعاد إلى دمشق. ثم سار سنة 561هـ إلى حصن المنيطرة فناجزهم ودخله عنوة.

ضم مصر سنة 1169م وإنهاء حكم الفاطميين وتوحيد المشرق العربي تحت خلافة واحدة

أرسل نور الدين أسد الدين شركوه وصلاح الدين إلى مصر، بهدف معلن وهو إعادة شاور إلى الوزارة وهدف غير معلن وهو ضم مصر، وبعد انقلاب شاور ومقتله تولى شيركوه الوزارة للخليفة العاضد

آخر الخلفاء الفاطميين، على أنه لم يلبث أن توفي بعد شهرين فخلفه في الوزارة صلاح الدين الأيوبي، ونجح في إقامة الأمن واستتباب الأمور وتثبيت أقدامه في البلاد، وجاءت الفرصة المناسبة لإسقاط دولة الفاطميين، فقطع الدعاء للخليفة الفاطمي ودعا للخليفة العباسي في أول جمعة من سنة 567هـ/ سبتمبر 1171م.

وكان لدخول مصر تحت حكم دولة نور الدين محمود دويٌّ هائل، لا في مملكة بيت المقدس وحدها بل في الغرب الأوربي كله، وارتفعت الأصوات لبعث حملة جديدة تعيد للصليبيين في الشام هيبتهم وسلطانهم، وتوجه لمصر ضربات قوية، غير أن حملتهم على مصر لم تحقق أهدافها ليقظة صلاح الدين في مصر، وبنجاح نور الدين في ضم مصر إلى جبهة المقاومة، يكون قد حقق الحلقة الأخيرة من حلقات توحيد الجبهة الإسلامية تمهيدا للضربة القاضية.

ضم الموصل سنة 1171م

أقام نور الدين على حصار الموصل، فعزم من بها من الأمراء على مجاهرة فخر الدين عبد المسيح بالعصيان وتسليم البلد إلى نور الدين، فعلم فخر الدين بذلك وأرسل إلى نور الدين يفاوضه في تسليم البلد إليه على أن يبقيه تحت حكم سيف الدين، وعلى أن يمنحه الأمان لنفسه وماله، فأجابه إلى ذلك، وشرط عليه، بالمقابل، أن يأخذه معه إلى الشام، وأن يعطيه عنده إقطاعا يرضيه.[27]

تقييم الدور التاريخي والسياسي لنور الدين زنكي

يعتبر نور الدين أحد النماذج التاريخية للحاكم العادل الزاهد المتقشف، فقد كان الرجل تقيًّا ورعا شغوفا بالعلم، معظّما للعلماء، وكان يختار رجال دولته بعناية فائقة، ومنح القضاء استقلالا تاما، وأنشأ دار العدل التي كانت بمنزلة محكمة عليا لمحاسبة كبار الموظفين في الدولة،وتحرى العدل وأنصف المظلوم من الظالم دون النظر إلى الفوارق الاجتماعية، كما كان حريصا على تأمين الخدمات الاجتماعية لرعيته،[28] واعتنى بمصالح الرعية، فأسقط ما كان يؤخذ من المكوس، وأعطى عرب البادية إقطاعات لئلا يتعرضوا للحجاج،[29] لكل ذلك وغيره جعل بعض المؤرخين يشبهه بالخلفاء الراشدين.

جمع نور الدين بين مجموعة من الصفات: حزم وشجاعة وفروسية وجهاد أبيه، إضافة إلى تقوى وصلاح وفقه وتعبد وتقشف وتواضع ورقة الزاهد المتصوف، فقد تعلم نور الدين القرآن والفروسية والرمي، وكان شهما شجاعا ذا همة عالية وقصد صالح وحرمة وافرة وديانة بينة.[30] قام بتحصين بلاد الشام وبنى الأسوار على مدنها، وبنى مدارس كثيرة منها العادلية والنورية ودار الحديث، ويعتبر أول من بنى مدرسة للحديث، وقام ببناء الجامع النوري بالموصل، وبنى الخانات في الطرق، وكان متواضعا مهيبا وقورا، يكرم العلماء، وكان فقيها على المذهب الحنفي، فكان يجلس في كل أسبوع أربعة أيام يحضر

الفقهاء عنده، ويأمر بإزالة الحجاب حتى يصل إليه من يشاء، ويسأل الفقهاء عمّا يُشكل عليه، ووقف كتبا كثيرة ليقرأها الناس.[31] وقد أثار حسه الجهادي سواء من الناحية العسكرية أو الدينية كُتاب الغرب ومؤرخيه فتحدثوا عن ذلك باستفاضة.[32]

نهج نور الدين سياسة مخالفة لأبيه تقوم على طلب الوحدة بالوسائل السياسية والديبلوماسية والمصاهرة وتأليف القلوب وتقديم المثال الجيد في سياسة الرعية، ومن دلائل ذلك طلبه توحيد الصف مع دمشق بالمصاهرة كما أشرنا إلى ذلك سابقا، ودخوله عددا من المدن والحصون سلما دون قتال – تقريبا– لإقبال الرعية وأهل البلد عليه رغبة في الانضواء تحت حكمه، ومن أهم هذه المدن دمشق نفسها.

إن الجهد الذي بذله نور الدين لبناء جبهة داخلية قوية متماسكة كانت قاعدته العدل والمساواة والإيمان بالله والجهاد في سبيله وهدفه حشد قوى المسلمين جميعا لقتال أعداء الدين، فقد كان الرجل يؤمن بأن طرد الصليبيين من بلاد المسلمين لا يتم من الناحية الاستراتيجية والعسكرية إلا بتوحيد مصر والشام وتوحيد الخلافة الإسلامية على أن هذا المطلب لا يتحقق بالقوة والقهر، وإنما بالوسائل السلمية والسياسية ما أمكن ذلك.

أُعتبر نور الدين زنكي الشخصية الأكثر إسهاما في إعداد وتمهيد الأرضية لصلاح الدين الأيوبي لتحرير بيت المقدس، إذ تولى نور الدين تربية الأخير منذ صغره، فكان له بمنزلة الوالد والمعلِّم، وكان يدربه على فنون القتال، ويغرس فيه حب الجهاد في سبيل الله، ثم عينه بعد ذلك قائدا للشرطة، وأرسله بصحبة عمه أسد الدين شيركوه إلى مصر استجابة للوزير شاور ضد ضرغام الذي استعان بالصليبيين، وبعد انتصار أسد الدين ووفاته، تولى صلاح الدين الوزارة في مصر للدولة الفاطمية، رغم كونه سُنّيا، وقد عمل صلاح الدين على تحقيق أحلام نور الدين، وأحلامه الشخصية، وأحلام المسلمين جميعا بالقضاء على الدولة الفاطمية، وعادت مصر دولة سنية مرة أخرى.

كانت علاقة نور الدين محمود بصلاح الدين بعد إسقاط الدولة الفاطمية حسنة إجمالا، وبخاصة أن صلاح الدين قام بتنفيذ الأمر الصادر إليه من نور الدين بوجوب الدعوة للخلافة العباسية بوصفه نائبا عنه، وقائدا لقواته في مصر، ومع ذلك لم تلبث هذه العلاقة الطيبة أن أخذت في التوتر تدريجيا.[33] ولكن ما هي الأسباب التي أدت إلى توتر العلاقة بين صلاح الدين ونور الدين محمود؟ لقد عرض بعض المؤرخين وجهات نظر مختلفة تحاول أن تكشف عن أسباب هذا التباعد منها الطموحات التي نشأت لدى أسد الدين شيركوه في حكم مصر، فلم يخف شيركوه هذه الغاية في نفسه، بل ظل يتحدث عنها حتى استاء نور الدين محمود وانتابه القلق من هذا الطموح.

ولكن نرى أن اختلاف وجهات النظر السياسية كانت من أهم أسباب توتر العلاقة بين نور الدين محمود وصلاح الدين، فقد رأى نور الدين محمود في بلاد الشام بمنزلة الأرض الرئيسية للمعركة ضد الصليبيين، وتطلع إلى مصر كمصدر للطاقة البشرية الإضافية والواردات المادية التي تسد نفقات الجهاد، وخطوة تمهيدية للقضاء على مملكة بيت المقدس الصليبية وهو لم يناضل فيضمها إلا من أجل هذه الغاية، أما صلاح الدين، فقد كان مقتنعا نتيجة للصراع بين القوى الثلاث في الشرق الأدنى الإسلامية والصليبية والبيزنطية حول مصر بأن هذا البلد يشكل في الوقت الراهن مركز الثقل في العمليات العسكرية، ونتيجة لهذا الاختلاف في وجهات النظر السياسية كانت تصرفات أحد الرجلين تفسر على أنها موجهة ضد الآخر، كما لا نخفي تطلعات صلاح الدين للاستقلال بحكم مصر عن نور الدين، وقد نتفهم ذلك على اعتبار عدم وجود أي خلَف قوي في حال رحيل نور الدين عن ساحة الصراع سوى صلاح الدين، لهذا رأى الأخير ضرورة الحفاظ على سلطانه ونفوذه بمصر، ولهذا ورث –تقريبا– دولة سلفه نور الدين وبنى عليها، وهذا يخدم، أيضا، استمرار التراكم في مسار توحيد المسلمين سياسيا وعسكريا ليوم كان معلوما.

رابعا: شخصيات أخرى مساندة

نجم الدين أيوب

لا أحد ينكر أهمية دور وإسهامات نجم الدين أيوب، والد صلاح الدين الأيوبي وأحد أبرز قادة وعمال نور الدين زنكي، إذ يحسب له إيواؤه لعماد الدين زنكي بعد هزيمته أمام جيش الخليفة العباسي، ورعايته لابنه صلاح الدين يوسف وتأهيله كي يكون القائد والسلطان ومحرر بيت المقدس، وكذا خدمته في جيش عماد الدين ونور الدين، باعتباره أحد أبرز القادة فيه، وقد كان، أيضا، أحد أهم مستشاري زنكي سواء الأب أو الإبن، كما ولاه عماد الدين على بعلبك بعد مساهمته هو وأسرته في فتحها.

ويُضاف إلى كل هذا مساهمته المفصلية في ضم دمشق لحكم نور الدين، وتفصيل ذلك أن أتابك دمشق معين الدين أنر انتهز فرصة وفاة عماد الدين للتحرك ضد بعلبك وحصارها، حيث اضطر حينها نجم الدين أيوب إلى التنازل عن بعلبك، مقابل الحصول على إقطاعات له في الشام، وبعد أن استلم نجم الدين أيوب إقطاعاته في دمشق أصبح مع مرور الزمن مسؤولا عن أمنها الداخلي وقائدا لقواتها،[34] وعندما ازدادت رغبة نور الدين في حيازة دمشق طلب من شيركوه بمكاتبة أخيه من أجل السعي في تسليم البلد لنور الدين وأخذِها من صاحبها مجير الدين أبق،[35] فكان له ما أراد وكان ذلك سنة 1154م. وبعد أن أصبحت دمشق في عهدة تابعة للدولة الزنكية اجتمع الاخوان شيركوه ونجم الدين أيوب مجددا في خدمة نور الدين، فعين نور الدين نجم الدين أيوب واليا على دمشق.

معين الدين أنر ودوره في كسر الحملة الصليبية الثانية

استأثر معين الدين بتدبير أمور دمشق في حكم جمال الدين محمد بن بوري بن طغتكين (533 - 534هـ/1139-1140م) وابنه مجير الدين أبق (534-549هـ/1140-1154م). بادر الفرنج بعد ظهور التعاضد بين نور الدين ومعين الدين بإرسال الحملة الصليبية الثانية سنة 543هـ/1148م إلى بلاد الشام قاصدة احتلال دمشق، واجتمع الصليبيون للغارة على دمشق وأعمالها، فخيموا في المزة، وأكثروا القتل والنهب والسبي، فتصدى معين الدين لهم، ونشبت الحرب، واستبسل المسلمون في ذلك، وأبلى الأمير معين الدين في حربهم بلاء حسنا، ولما استولى الفرنج على الميدان الأخضر على مشارف دمشق الجنوبية، استعجل معين الدين نجدة سيف الدين غازي وأخيه نور الدين اللذين وصلا إلى حماة في عشرين ألفا، فأرسل معين الدين إلى الفرنج مهددا: "إن صاحب الشرق قد حضر، فإن رحلتم وإلا سلمت دمشق إليه، وحينئذ تندمون"، كما أرسل إلى صليبيي بيت المقدس في الشام يقول: "بأي عقل تساعدون هؤلاء الغرباء علينا، وأنتم تعلمون أنهم إن ملكوا أخذوا بلادكم، وأنا إن ملكت سلمت البلد إلى أولاد زنكي، فلا يبقى لكم معه ملك"، وأطمعهم ببانياس إن هم رحلوا عن دمشق، فأجابوه إلى ذلك خشية سيطرة نور الدين وأخيه على دمشق، فلا يبقى لهم مقام بالساحل.

عقب رحيل الفرنج عن دمشق استولى ملك الألمان وصاحب جزيرة صقلية على بلدة العُرَيمة، وعزما على أخذ طرابلس أيضا، ووصلت رسل صاحب العريمة إلى نور الدين ومعين الدين فأسرعا الخطى إليه وكتبا إلى سيف الدين يستمدانه فأمدهما، فحاصرا الحصن ونقبا سوره فاستسلم الفرنج وأُسر صاحب صقلية، وعاد معين الدين إلى دمشق، وهاجم من بقي من الفرنج في أعمال دمشق، وعسكر بالجند في ناحية من حَوْرَان، وكاتب العرب، واستدعى جماعة وافرة من التركمان، وأطلق أيديهم في نهب قوات الفرنج والفتك بهم.

وفي سنة 544هـ أنفذ نور الدين إلى معين الدين يعلمه أن صاحب أنطاكية قد حشد إفرنج بلاده ويريد الإغارة على الأعمال الحلبية، وأنه قد برز في عسكره إلى ظاهر حلب للقائه، والحاجة ماسة إلى معاضدته، فندب معين الدين مجاهد الدين بزان بن مامين في فريق وافر من العسكر الدمشقي لمناصرته، وبقي معين الدين في باقي العسكر بناحية حَوْرَان، وبينما كان يدبر أمر جيشه بحوران أصابه مرض في الكبد أجبره على العودة إلى دمشق، فقضى فيها، وقد كان معين الدين -في سيرته- عاقلا مدبرا حسن الديانة ظاهر الشجاعة.

أسد الدين شيركوه وأعظم قادة نور الدين العسكريين ودوره الأساسي في ضم مصر

يمكن الوقوف بالنسبة لهذه الشخصية على عدد من الأدوار التاريخية من أبرزها انخراط شيركوه وكذلك أخوه أيوب في الجيش ومشاركة عماد الدين في جميع حروبه وفي شؤون أتابكيته،[36] والتحاق شيركوه بخدمة نور الدين بعد وفاة والده عماد الدين أثناء حصاره لقلعة جعبر، وقد توجه نور الدين بعد وفاة والده باتجاه حلب وأخذها عملا بنصيحة أسد الدين شيركوه،[37] والذي قال له: "رأيت أن أصيّرك إلى حلب، وتجعلها كرسي ملكك، وتجتمع في خدمتك عساكر الشام... ومن ملك حلب استظهر على بلاد الشرق"، ولا ننسى فضله ومساهمته في فتح دمشق،[38] فقد كان له اليد الطولى في فتحها، حيث إنه كان قائدا للقوات المحاصِرة أثناء هجوم نور الدين على دمشق، في حين كان أيوب على رأس حاميتها ولم يبخل بالمساهمة في ضم دمشق لحكم نور الدين.[39] وبعدها عين نور الدين شيركوه حاكما على حمص ونائبا لوالي دمشق.

يضاف إلى هذا كله قيادة شيركوه القوات الموجهة للاستيلاء على مصر، وضمها لبلاد الشام، وهو هدف لم يتحقق مرة واحدة وإنما بعد عدد من الحملات والمواجهات داخل مصر مع أكثر من طرف ولا يتسع المجال للدخول في تفاصيله، وبذلك تم وضع حد للأطماع الصليبية الساعية حينها إلى السيطرة على مصر، فتولى شيركوه بها الوزارة بأمر من الخليفة العاضد عقب قتل الوزير شاور بعد أن تبينت نيته للغدر بشريكوه ومن معه من أمراء.[40]

إن الدولة الزنكية تدين لسواعد شيركوه في توسيع مجالها وترسيخ حكمها، بعد أن ساهم في جميع الحملات العسكرية التي قام بها نور الدين وقبله عماد الدين، وكان له الفضل في إنقاذ الدولة من الأخطار التي كانت تعرضت لها من جانب الصليبيين، كما كان له الفضل الأعظم في وضع حجر الأساس للدولة الأيوبية، حيث كان السبب في بروز صلاح الدين، فما كان إصراره على مرافقة صلاح الدين له خلال حملاته على مصر، إلا لدفعه بالانتقال من الصف الثالث في القيادة إلى المقدمة،[41] فكانت حادثة الإسكندرية وموقعة البابين تزيد من رصيد المقاتل الشاب وتكسبه شعبية في أوساط المصريين خصوصا والمسلمين عموما.

كان صلاح الدين بالنسبة لعمه صمّام الأمان ومركز ثقته، والمفتاح الذي من خلاله يحقّق جميع أهدافه، فكان يستشيره في جميع الأمور،[42] ويعتدّ برجاحة عقله وحسن تدبيره ودرايته بأمور الحرب والقتال، بالرغم من صغر سنه، وثقته بصلاح الدين لم تكن لها حدود، وحينما أصبح شيركوه وزيرا على مصر عيّن صلاح الدين قائدا عاماً للجيش الشامي،[43] كما أن صلاح الدين نفسه كان يسعى لتطوير علاقته مع عمه أكثر من علاقته بأبيه،[44] حيث كان معجبا بأسلوب عمه ومهاراته العسكرية،

أكثر مما تبهره طبيعة أبيه الدبلوماسية، وبالتالي كان يقضي وقته ما بين حلب والشام، لاسيما إنه كان الوسيط لنقل الرسائل والمعلومات بين عمه ونور الدين، وهو الذي استلم مكان عمه في مصر، والمشرق، أيضا، يدين لبسالة شيركوه الذي حطم أحلام الفرنجة بعد أن دك حصونهم وقطع دابرهم في مصر والرها والشام، وقد توفاه الله في مارس سنة 1169م.

الخاتمة

حاولنا من خلال هذه الدراسة تناول قضية تحرير بيت المقدس من زاوية جديدة لا تنسب المنجز كله لصلاح الدين الأيوبي، وذلك رغم اعترافنا بفضل الأخير والذي لا سبيل إلا إنكاره أو الجدال فيه، غير أننا نروم، أيضا، إبراز وتأكيد دور العديد من الشخصيات الأخرى في استرجاع هذه المدينة ذات المكانة والرمزية الخاصة لدى المسلمين وغيرهم، وإن قدر لهذه الشخصيات ألا تحضر عملية التحرير بشكل فعلي ومباشر كما أشرنا إلى ذلك آنفا.

هذا ولا ننسى دور العسكر والعامة والمتطوعة والفقهاء والمتصوفة وغيرهم، وهم جنود الخفاء في عملية تحرير بيت المقدس، إلا أن التاريخ لم يسجل معظم أسمائهم إلا القليل، وقد يكون هذا موضوع دراسة أخرى، كما نشير إلى مساهمة أهل الأقطار الإسلامية البعيدة عن ساحة الصراع، ومن أمثلتها مساهمة المغاربة، حيث جاء في معجم البلدان:

> قدم [يوسف الفندلاوي المغربي] الشام حاجا. فسكن بانياس مدة وكان خطيبا بها، ثم انتقل إلى دمشق فاستوطنها، ودرّس بها على مذهب مالك... وكان الإفرنج قد نزلوا على دمشق... سنة 543هـ... وخرج إليهم أهل دمشق يحاربونهم. فخرج الفندلاوي [المغربي] فيمن خرج فلقيه الأمير... فقال له: أيها الشيخ الإمام، إرجع، فأنت معذور للشيخوخة. فقال: لا أرجع. نحن بعنا واشترِي منا. يريد قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾. فما انسلخ النهار حتى حصل له ما تمنى من الشهادة.[45]

الهوامش

1 المملكة المغربية – وزارة التربية الوطنية، برنامج التاريخ – السنة الأولى الثانوية، الطبعة الثانية، 1995/ 1996، ص 172.

2 الأطلس التاريخي للبحر المتوسط، الحملات الصليبية، تم الاطلاع عليه في 2020/8/19، في:
http://explorethemed.com/CrusadesAr.asp

3 مملكة المعلم، خرائط الإمارات الصليبية، تاريخ خامس، تم الاطلاع عليه في 2020/8/20، في:
https://www.teacher-sa.com/showthread.php?t=5449؛ الدول الصليبية، تم الاطلاع عليه في 2020/08/21، في:
https://commons.wikimedia.org/wiki/File:Map_Crusader_states_1135-ar.png

4 Barber, Malcolm (2012). *The Crusader States*. New haven: Yale University Press.

5 الصاحب كمال الدين عمر بن أحمد ابن العديم، **زبدة الحلب من تاريخ حلب**، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1996، 2/ 154.

6 أبو يعلى حمزة ابن القلانسي، **ذيل تاريخ دمشق**، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، 1908، ص 169 – 171.

7 ابن العديم، المصدر السابق، 2/ 154.

8 عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، تحقيق أبو الفداء عبد الله القاضي، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987، 9/ 143.

9 ابن العديم، **زبدة الحلب**، 2/ 154.

10 ابن القلانسي، **ذيل تاريخ دمشق**، ص 173 – 174.

11 المصدر نفسه، ص 185.

12 ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، 9/ 149.

13 ابن القلانسي، **ذيل تاريخ دمشق**، ص 186.

14 Grousset, René (1936). *Histoire des croisades et du royaume France de Jérusalem*. Paris: Plon, vol I, p. 274.

15 يُنظر: ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، 9/ 150، ويُنظر، أيضا، ابن القلانسي، **ذيل تاريخ دمشق**، ص 187.

16 للتوسع أكثر في سيرة عماد الدين زنكي، يُنظر: محمد سهيل طقوش، **تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام: 521 – 630هـ/1127 – 1232م**، ط 2، دار النفائس، بيروت، 2010، ويُنظر: أبو الفداء الحافظ الدمشقي ابن كثير، **البداية والنهاية**، ضبطت وصححت هذه الطبعة على عدة نسخ وذيلت بشروح قامت بها هيئة بإشراف الناشر، مكتبة المعارف، بيروت، 1991، الجزء 12، ويُنظر، أيضا، ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، الجزء 9.

17 ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، 9/ 153.

18 يُنظر في شأن تفاصيل فتح حلب: ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، 9/ 246 – 247.

19 المصدر نفسه، 9/ 251 – 252.

20 المصدر نفسه، 9/ 254.

21 المصدر نفسه، 9/ 255.

22 المصدر نفسه، 9/ 274 – 275.

23 المصدر نفسه، 9/302.

24 المصدر نفسه، 9/ 331.

25 المصدر نفسه، 9/ 340.

26 للتوسع أكثر في سيرة نور الدين زنكي، يُنظر: طقوش، **تاريخ الزنكيين**، ويُنظر: ابن كثير، **البداية والنهاية**، الجزء 12، ويُنظر، أيضا، بسام العسلي، **مشاهير الخلفاء والأمراء: نور الدين القائد**، ط 2، دار النفائس، بيروت، 1988.

27 العسلي، **مشاهير الخلفاء**، ص 116 – 118.

28 طقوش، **تاريخ الزنكيين**، ص 407 – 420.

29 محمد سعيد مرسي، **عظماء الإسلام عبر أربعة عشر قرنا من الزمان**، دار اقرأ للنشر والتوزيع، 2003، ص 226.

30 ابن كثير، **البداية والنهاية**، 12/ 277 – 278.

31 مرسي، **عظماء الإسلام**، ص 226 – 227.

32 Elisseeff, Nikita (1967). *Nur ad-Din: un Grand Prince musulman de Syrie au temps des croisades*. Damascus: Institut Français de Damas, Tome III.

33 طقوش، **تاريخ الزنكيين**، ص 394، 395.

34 محمد سهيل طقوش، **تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام**، دار النفائس، 1999، ص 19.

35 جمال الدين محمد بن سالم ابن واصل، **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**، تحقيق جمال الدين الشيال – حسنين محمد ربيع – سعيد عبد الفتاح عاشور، دار الكتب والوثائق القومية – المطبعة الأميرية، 1957، 1/ 10.

36 السيد الباز العريني، **الشرق الأدنى في العصور الوسطى**، دار النهضة لطبع والنشر والتوزيع، 1967، ص 25.

37 شهاب الدين عبد الرحمٰن بن إسماعيل أبو شامة المقدسي، **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، تحقيق إبراهيم الزيبق، ط 1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1997، 1/ 168 - 169.

38 ابن كثير، **البداية والنهاية**، 12/ 260، ويُنظر، أيضا، إبراهيم بيضون، **تاريخ بلاد الشام في العصور الإسلامية**، ط 1، شركة المطبوعات، بيروت، 2002، ص 336.

39 ابن واصل، **مفرج الكروب**، 1/ 10.

40 يُنظر في هذا الشأن: عبد الرحمان عزام، **صلاح الدين الأيوبي وإعادة المذهب السني**، مؤسسة قطر للنشر، 2013، ص 91 – 92، ويُنظر: ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، دار صادر، بيروت، 1972، 7/ 150، ويُنظر، أيضا، أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن علي، المختصر في تاريخ البشر، مطبوعات الحسينية، مصر، 3/ 45، ويُنظر، كذلك، ابن الأثير، المصدر السابق، 9/ 162.

41 بيضون، **تاريخ بلاد الشام**، ص 339.

42 ليلى إسماعيل، **تاريخ الأيوبيين والمماليك في مصر والشام**، دار الثقافة العربية، مصر، د.ت، ص 13.

43 عزام، **صلاح الدين**، ص 94.

44 المصدر نفسه، ص 68.

45 ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، دار صادر، بيروت، 1977، المجلد الرابع، ص 277 – 278.